

الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ / ١٠٧٨م) وأثاره العلمية

محمد أنوار الحق الخطيبي

هو الإمام أبو بكر بن عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني ، كان فارسي الأصل من أهل جرجان (١) ولد في جرجان وهي مدينة معروفة بين طبرستان وخراسان. ونسب إليها . وولادته كانت في مطلع القرن الخامس الهجري، ولكن لم يعرف تاريخ ولادته . لقد نشأ وتربى في جرجان في ظل أسرة متديّنة . فبدأ حياته بالورع والعفة والتقوى، وهجر المنكرات والمنهيات . قال السلفي : كان ورعا قانعا دخل عليه لص وهو في الصلاة فأخذ ما وجد وعبد القاهر ينظر ولم يقطع صلاته (٢) . ولم يغادر عبد القاهر الجرجاني جرجان قط ، ولم يخرج منها في طلب العلم (٣) وأخذ فيها العلم عن أبي الحسين محمد بن عبد الوارث الفارسي النحوي

(ت ٤٢١هـ) ابن أخت الشيخ أبي علي الفارسي (٤). وأخذ أيضا عن أبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني (ت ٣٩٢هـ / ١٠٠٢م) الذي كان قاضي الريّ .

تكاد تجمع جميع المصادر التي ترجمت له على امامته في العربية واللغة والبيان . وكان شافعي المذهب متكلماً على مذهب الأشعرين ، قال عنه الفيروز آبادي : «أول من دون علم المعاني» (٥) دوت شهرته في الآفاق ، فعده أبو البركات الأنباري من أكابر النحويين (٦) ، وقال فيه الباخري ، معاصره من الأدباء : « وهو فرد في علمه الغزير ، لا بل هو العلم المفرد في الأئمة المشاهير ، وانفقت على امامته الألسنة » (٧) . وقال فيه الفيروز آبادي : « إمام العربية واللغة والبيان » (٨) . وقال عنه السيوطي : « كان من كبار أئمة العربية والبيان » (٩) فهو أديب عالم لغوي عميق الفكر والثقافة ، عمدة في البلاغة والعربية (١٠) . ويبدو أنه تكسب بالشعر ، فقد مدح نظام الملك أبا الحسن علي بن الحسن الطوسي وزير السلاجقة الذي اغتاله الباطنية سنة ٤٨٥هـ ولكنه لم ينل حظوة عند الممدوحين ، ولم تقبل الدنيا على عبد القاهر الجرجاني فكان كثير السخط على أحوالها وأمورها (١١) وكان ينظم شعراً وينث فيه ما في نفسه من لواعج ، ولكن شعره قليل ، ولم يرق به إلى مرتبة الشعراء . وقد صدق الدكتور علي توفيق الحمد حين قال عن شعره : « وفي ظني أنه لم يقصد ذلك ، ولو قصد لأجاد لتمكنه وموهبته وبيانه » . (١٢) وقد حفظت الكتب التي ترجمت له بعض أشعاره (١٣) .

كان عبد القاهر الجرجاني من أئمة اللغة والنحو

والأدب، غزير العلم ، وقد قيل فيه : هو مؤسس علم البيان .
ولا ريب في أنه جاء بعلم البيان والبلاغة نحو شيء من التنظيم
والتعليل المنطقي . وكان أشعري المذهب في علم
الأصول والعقائد ، فلذلك طبق شيئاً من أصول علم الكلام
على البلاغة (١٤) .

لقد نبغ الخليل بن أحمد (١٠٠-١٧٤هـ) ، وسيبويه
(١٤٠-١٨٠هـ) ، والكسائي (١٨٩هـ) ، ويونس بن حبيب
(١٨٧هـ) في القرن الثاني الهجري ، والفراء (١٤٤-٢٠٧هـ)
والأخفش الأوسط (ت: ٢١٥هـ) في القرن الثاني والثالث معا ،
والمازني والمبرد في القرن الثالث ، والزجاج
(٢٤٠-٣١١هـ) ، والزجاجي (ت: ٣٤٠هـ) والسيرافي
(٢٨٠-٣٦٨هـ) وأبو علي الفارسي (٢٨٨-٣٧٧هـ) وابن
السراج ، وابن الجني في القرن الثالث والرابع ، والزمخشري
(٤٦٧-٥٣٨هـ) وابن الأنباري (٥١٣-٥٧٧هـ) في القرن
الخامس والسادس . وفي القرن السابع نبغ ابن مالك وابن
حاجب (٥٧٠-٦٤٦هـ) والمطرزي النحوي (٥٣٨-٦١٠هـ)
. ولو تتبعنا جهود النحويين في القرن الخامس نجد أن
المؤرخين لم ينصفوا القرن الخامس الهجري الذي عاش فيه
عبد القاهر الجرجاني . ولعلمهم ظنوا أن القرن الخامس خال من
مشاهير النحاة ، والأمر ليس كذلك ، فقد نبغ فيه إبراهيم بن
سعيد النحوي (٣٤٠-٤١١هـ) ، وعبد القاهر الجرجاني
وغيرهما ، وكان الجرجاني وحده أمة برأسه ونسيج وحده في
عصره .

ولقد قال الأستاذ السيد محمد رشيد رضا حول
مساهمته في علم البلاغة : « كتب قبل عبد القاهر في

مسائل من البيان بعض البلغاء كالجاحظ وابن دريد ، وقدامة الكاتب ، ولكنهم لم يبلغوا فيما بنوه أن جعلوه فناً مرفوع القواعد مفتوح الأبواب كما فعل عبد القاهر من بعدهم فهو واضع علم البلاغة ، كما صرح به بعض علمائها وان لم يذكر له هذه المنقبة المؤرخون الذين رأينا ترجمته في كتبهم حتى أن ابن خلدون الذي تصدى دون القوم للإمام بتاريخ الفنون أهمل ذكره ، وزعم أن الذي هدب الفن بعد أولئك الذين كتبوا في مسائل متفرقة منه هو السكاكي ، وما كان السكاكي إلا عيالاً على عبد القاهر ، تلا تلوه وأخذ عنه مع المخالفة في شيء من الترتيب والتبويب ولكنه لم يسلم من التكلف في بعض عبارته ، والتعقيد في بعض منازعه ، فإذا جاز لنا أن نقول إنه فاق لتأخره بالترتيب المعلوم ، وبما حرره من الحدود والرسوم ، فإننا لا ننسى من فضل المتقدم سلامة عبارته ، وصفاء ديباجته ، وغوصه في أسرار الكلام ، ووضع دررها في أبداع نظام « (١٥) ، ويقول أيضا : « فمثل عبد القاهر في أسرار بلاغته ودلائل إعجازه وكمثل ابن خلدون في مقدمته ، والسلطان سليمان العثماني في قوانينه » (١٦) ، ومن ثم يعد عبد القاهر الجرجاني المؤسس الحقيقي لعلم البلاغة كما يعد مؤسساً لعلم المعاني والبيان ، رغماً من أن أبواب هذا العلم كلها كانت معروفة عند سابقيه .

إن عبد القاهر الجرجاني قد نهل من أمهات الكتب التي صنّفها المتقدمون في علوم الدين والفلسفة والكلام لا سيما من كتب النحو واللغة والأدب والبلاغة (١٧) .

يقول الدكتور علي توفيق الحمد عن مكانته العلمية :
« لعل قول من ترجموا له : هو إمام العربية واللغة والبيان شاهد

له على علو منزلته العلمية ، فإن نظرنا إليه من زاوية الأدب فهو أديب ، ومن زاوية البلاغة فهو قمة في بلاغته وبيانه ، وهو « أول من دون علم المعاني » ولو نظرنا إليه من زاوية الدراسات اللغوية لوجدنا جهوده ومؤلفاته - ما وصل إلينا منها وما لم يصل - ترفعه إلى مصاف الكبار بالإضافة إلى نظراته التجديدية في (دلائل الإعجاز) وفي النظم تحديداً (١٨) .

إن جهود عبد القاهر العلمية تشعبت وتنوعت وأبدع في كل مجال خاضه وصنف فيه ، فهو إمام في اللغة ، كما هو إمام في الدراسات النقدية والبلاغية (١٩) ، والأدبية والأسلوبية ، والدراسات القرآنية ، وإعجاز القرآن ، والعروض (٢٠) .

ومن تلاميذه : يحيى بن علي الخطيب التبريزي ، وعلي بن زيد الفصيح ، وأبو نصر أحمد بن إبراهيم بن محمد الشجري النحوي الفقيه الذي قرأ علي عبد القاهر كتاب «المقتصد» لعبد القاهر ، وأحمد بن عبد الله المهاباز (الضريير) صاحب شرح اللمع لابن جنبي ، والإمام أبو عامر الفضل بن إسماعيل التميمي الجرجاني الذي هو من أجل تلامذة عبد القاهر (٢١) .

مؤلفاته :

ولعبد القاهر الجرجاني عدة مؤلفات ، حصرها المترجمون له في ثمانية عشر كتاباً ، وهي كما يلي :

١- المغني في شرح الإيضاح (٢٢) : وهو شرح مبسوط لكتاب الإيضاح في النحو لأبي علي الفارسي (ت٣٧٧هـ) في ثلاثين مجلداً .

٢- المقتصد في شرح الإيضاح : وهو مختصر المغني في

ثلاثة مجلدات ، فرغ من تأليفه عام ٤٥٦هـ وقرأه عليه أحمد بن محمد الشجري ، وقد حققه وطبعه د. كاظم بحر المرجان كما ذكر في كتاب المفتاح في الصرف ص ٩ .

٣- الإيجاز : وهو مختصر لإيضاح الفارسي (٢٣) .

٤- التكملة : (٢٤) : وهو زيادات على المعني .

٥- العوامل المائة أو مائة عامل : وهو كتاب مشهور في

النحو ، طبع في ليدن سنة ١٦١٧م ، وفي كلكتا سنة ١٨٠٣م

و١٨١٤م ، نظمه بالتركية صوفي زاده الأدرنوي (١٠٢٤هـ) ،

وترجمه إليها أيضا كمال الدين المدرس (٢٥) وقد نظم

بالفارسية تحت عنوان : « مائة عامل منظوم » ، ولقد عكف

على شرح هذا الكتاب وإعرابه ، والتعليق عليه ، وترجمته إلى

اللغات الأخرى ، ووضع الحواشي عليه الكثير من فحول

علماء النحو المبرزين (٢٦) ، وله شروح عديدة توجد في

مكتبات أوروبا وآسيا ، ومن أهم شروح العوامل المائة :

أ) شرح الشيخ خالد الأزهري المتوفى سنة ٩٠٥م

ب) شرح العوامل للسيد شريف علي بن محمد الجرجاني

المتوفى سنة ٨٦١هـ .

ج) شرح العوامل المائة النحوية للشيخ يحيى بن نصوص

إسرائيل .

٦- الجمل في النحو : ويعرف أيضا باسم الجرجانية ، وهو

اختصار لكتاب العوامل المائة ، وقد شرحه علماء كثيرون .

٧- التلخيص : وهو شرح لكتاب الجمل .

٨- العمدة في التصريف : وهي رسالة موجزة لم تتضمن

الأبواب الموجودة في كتاب « المفتاح » كأبنية الأسماء

والزيادة ، والاشتقاق والمصدر وأبنية المصادر والإبدال

والحذف . والجرجاني نفسه يقول في خطبة العمدة في التصريف : « هذه جمل من القول في التصريف » .
 ٩- وله أيضا كتاب في العروض : وهو في صورة قصيدة تتضمن قواعد الأوزان الشعرية ويقع في صفحات ، وطبع في ذيل كتاب « الإقناع في العروض وتخريج القوافي » للمصاحب ابن عبّاد ، ١٩٦٠م بتحقيق الشيخ محمد آل ياسين (٢٧) .
 ١٠- التتمة في النحو : توجد نسخته في الهند وفي المتحف البريطاني .

١١- شرح الفاتحة : لعله تفسير سورة الفاتحة .
 ١٢- المختار من دواوين الممتني والبحثري وأبي تمام : طبع في « الطرائف » لعبد العزيز الميمني ، القاهرة (لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٣١٩هـ .
 ١٣- المعتضد : شرح على إعجاز القرآن للواسطي .
 ١٤- الرسالة الشافية في الإعجاز : - في عجز البشر عن معارضة القرآن الكريم في الإتيان بشيء من مثله - وهو منشور ضمن كتاب « ثلاث رسائل في إعجاز القرآن » بتعليق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام .
 ١٥- التذكرة : ذكرها القفطي في إنباه الرواة .

١٦- المفتاح في الصرف : لم يعثر عليه إلى زمن طويل - حققه وقدم له الدكتور علي توفيق الحمد ، الأستاذ بكلية الآداب ، بجامعة اليرموك ، الأردن ، على أساس مخطوطة وحيدة محفوظة بدار الكتب الوطنية - الظاهرية - في دمشق ، وكانت المخطوطة مكتوبة على ورقة الغلاف ، وطبع لأول مرة تحت عنوان : « كتاب المفتاح في الصرف » في بيروت سنة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

(أ) عنوانه :

لقد اختار الجرجاني عنوانا مناسباً دالاً على موضوعات الكتب فسماه « المفتاح » وهو مفتاح لعلم الصرف من غير ارتياب إذ هو كتاب موجز ، وقد وصفه وصفاً معبراً في الخطبة بقوله :

« الحمد لله المفيض الخيرات ، الواهب البركات ، والصلاة على محمد خاتم الرسالات صلى الله عليه وآله الطيبين والطيبات ، صلاة دائمة دوام الأرض والسموات ، وبعد : هذا كتاب قليل الألفاظ ، كثير المعاني ، سهل للحفظ ، قريب التناول ، سميته « بالمفتاح » رجاء أن أذكر في صالح دعاء المؤمنين » (٢٨) .

وموضوعاته وإيجازه يدلان على أنه مفتاح لعلم الصرف ، فهو على إيجازه تضمن موضوعات تعدّ أصولاً في هذا العلم ، واقتصر فيها على الأصول والأسس في كل باب ، ولم يسهب أو يستشهد بشواهد قرآنية أو شعرية أو أقوال إلا قليلاً جداً ، فهو في هذا يشبه المختصرات أو الكتب الموجزة كالملوكي في التصريف لابن جنى ، و « نزهة الطرف في علم الصرف » للميداني ، و « شافية » ابن الحاجب (٢٩) .

(ب) مادته :

تضمن الكتاب اثني عشر باباً موجزاً ، علاوة على خطبة قصيرة في صدر الكتاب ، وختمه بباب خصّصه لبحث مسائل وقضايا صرفية متفرقة . أما الأبواب الأساسية فهي : باب التصريف ، أبنية الأسماء ، أبنية الأفعال ، والمعاني في الأفعال ، والمصدر ، والفعل ، والاشتقاق ، وأبنية المصادر ، والأمثلة ، وهو يقابل تصريف الأفعال ، ثم باب الزيادة ،

فالإبدال ، ثم الحذف ، وهذه الأبواب هي جملة أبواب الأصول الرئيسية التي يتناولها علم الصرف ، واعتمد المؤلف إلى حد كبير في بعض الأبواب على ما جاء في كتاب التكملة للفارسي ، ومن أهم القضايا التي تضمنها الكتاب إجازته الوزن على البديل ، فكساء وزنه ، فعال أو فعاء ، وهو يقول : « وفي البديل من الأصل جاز فيه المثلان ، فمثل كساء : فعال أو فعاء ، أصله كساو ، قلبت الواو همزة لتطرفها » (٣٠) .
ج) منهجه :

اعتمد الجرجاني في هذا الكتاب طريقة الإيجاز ، فهو يكتفي بإيراد القاعدة ، والتمثيل لها بمثال أو مثالين ، شأنه في ذلك شأن الكتب الموجزة كالملوكي في التصريف لابن جني ، والشافية لابن الحاجب ، وقد خلا الكتاب من الشواهد الشعرية ، وذكر ثلاثة شواهد قرآنية فقط ، إضافة إلى ذكر أربعة أعلام فقط ، وهذا أمر يبرره منهجه الذي ارتضى الإيجاز واختاره ، ونلاحظ خلو الكتاب من مسائل التمرين التي اختتمت بها بعض كتب الصرف الأخرى ، مثل كتاب الصرف لابن جني ، وشرح الملوكي لابن يعيش ، والممتع لابن عصفور وشافية ابن الحاجب (٣١) .
د) مصطلحاته وآرائه :

استخدم عبد القاهر الجرجاني مصطلحات قلما نعثر عليها في كتب أخرى ، فكأنه تميز باستخدامها ، ومن هذه المصطلحات :

أ- أطلق لقب المطابق على الفعل المضاعف ، ولقب التبر على المهموز العين ، والهمزة على المهموز اللام ، والقطع على المهموز الفاء .

ب- أطلق لقب ذي الثلاثة على الفعل الأجوف ، لصيرورته على ثلاثة أحرف في المتكلم بنحو قلت .

ج- أطلق لقب ذي الأربعة على الفعل المعتل الناقص لصيرورته على أربعة أحرف في المتكلم ، وهو دعوت ورميت (٣٢) .

د- استخدم مصطلح القلب المستوي ، وهو أن تكون حروف الثاني مثل حروف الأول ، ويختلفان في ترتيب حروف الكلمتين فقط ، كما هو في قوله تعالى : ﴿ وريك فكبر ﴾ .

هـ- استخدم مصطلح الأفعال المنشعبة ، ويعني بها المزيدة على الأصول الثلاثية أو الرباعية .

و- استخدم مصطلح الفعل الواقع والمجاوز للفعل المتعدي ، وغير الواقع والمطاوع للفعل اللازم .

ز- استخدم مصطلح « مصدر للنوع » ويعني به اسم الهيئة .
ومن الآراء التي وضّحها وتبناها ، وقلمنا تشيع في كتب الصرف :

أ- فرق في الاستخدام بين الجحد والنفي .

ب- يرى أن لاسم الفاعل صيغ مبالغة خاصة ، تختلف عن تلك التي تستخدم لاسم المفعول ، فبعد اسم الفاعل ذكر المبالغة منه : نصار ونصير مطلقا ، وبعد اسم المفعول ذكر المبالغة منه : منصار ومنصير مطلقا .

ج- يرى أن عين « قلت وبعث » ثابت تقديرا لا ساقط ، أي أصلي انماز من الزائد .

د- تبني رأي الأخفش والفراء في أصل (أشياء) ووزنها ، فأصلها أشياء على وزن أفعلاء ثم حدثت الهمزة من وسط

(أَشْيَاءٌ) لكثرتها وانفتحت الياء لأجل الألف ، فصار
وزنها أفعاء (٣٣) .

وما في الكتاب يوافق بشكل عام ما جاء في الكتب
المتخصصة السابقة واللاحقة ، والفرق بين كتاب وآخر في
الإيجاز أو الإسهاب ، ووفرة الشواهد أو قلتها .

واشتهر عبد القاهر الجرجاني لكتابين وهما « أسرار
البلاغة » و « دلائل الإعجاز » .

١٧- أسرار البلاغة : يقول الدكتور عبد المنعم خفاجي
شارح (دلائل الإعجاز) : « وقد ألف عبد القاهر كتابه أسرار
البلاغة أولاً ، ثم ألف دلائل الإعجاز ثانياً ، إن الجرجاني
شخصية فذة من الشخصيات التي وقفت على أسرار البيان
العربي ودقائقه وثقافته الواسعة الجوانب ، وبخاصة ما يتصل منها
بالأدب والنقد وأسرار النظم ودقائق المعاني » .

لقد كتب عادة علماء في البلاغة قبل عبد القاهر
الجرجاني ، ومنهم أبو عبيدة محمد بن المثنى الراوية تلميذ
الخليل بن أحمد (ت ٢١١هـ) ، وهو يعتبر أول من صنف في
علم البلاغة كتابه « مجاز القرآن » وأبو عثمان عمرو بن بحر
الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) الذي صنف « إعجاز القرآن » ، وهو
ثاني مؤسسي البلاغة ، وأبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة
الدينوري (ت ٢٧٦هـ) ، وهو ثالث العلماء البلاغيين ، وأبو
عباس محمد بن يزيد الملقب بالمبرد (ت ٣١٥هـ) وهو
رابع العلماء الذين كتبوا في البلاغة ، وقد جمع اللغة والأدب
والبلاغة في كتابه « الكامل » الذي يعد أصول الأدب القديم .
وجاء عبد الله بن المعتمر (ت ٢٩٦هـ) بعد الجاحظ
ووضع علم البديع وألف كتابه « البديع » أولاً ، وبناه على

خمسة أبواب وهي باب الاستعارة والتجنيس ، والمطابقة وردّ إعجاز الكلام علي ما تقدمها والمذهب الكلامي ، ولما فرغ من بيان هذه الألوان تحدث عما سماه محاسن الكلام وردّها إلى أربعة عشر لونا ، وهي الالتفات ، والاعتراض ، والرجوع ، وحسن الخروج من معنى إلى معنى ، وتأكيد المدح بما يشبه الذم ، وتجاهل العارف ، والهزل يراد به الجد ، وحسن التضمنين ، والتعريض ، والكناية ، وحسن التشبيه ، وحسن الابتداءات ، والإفراط في الصفة وإعنائات الشاعر نفسه في القوافي ، وجاء بعده قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ) وأضاف إلى هذه الألوان ألوانا أخرى أهمها صحة أقسام وصحة المقابلات وائتلاف اللفظ مع المعنى ، وائتلاف القافية مع بقية البيت والتوشيح والإيغال (٣٤) ، وخلف من بعد ابن المعترز وقدامة أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري (ت ٣٩٥هـ) وألف كتاب « الصناعتين » أي صناعتي النثر والنظم ، جمع فيه خمسة وثلاثين نوعا من البديع ، وبث فيه عدة مسائل أخرى كالفضاحة والبلاغة ، والإيجاز والإطناب والحشو والتطويل ، وهو يعرف البلاغة ويفرق بينها وبين الفصاحة ، ويفيض في بيان صور البلاغة والمحسنات اللفظية والمعنوية إفاضة بارعة ، يضع في أثنائها كثيرا من الحدود والتعريفات ، ويلم بطائفة جديدة من الألوان البديعية ويكثر من الاستشهادات والأمثلة (٣٥) ، ونبغ عدة علماء البلاغة في القرن الرابع الهجري إضافة إلى أبي هلال العسكري ، ومنهم أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (ت ٣٨٦هـ) صاحب « النكت في إعجاز القرآن » ، وأبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي (٣٨٨هـ) مؤلف كتاب « بيان إعجاز القرآن » وأبو بكر محمد

بن الطيب الباقلائي (ت ٤٠٣هـ) الذي ألف كتاب « إعجاز القرآن » .

يقول الدكتور شوقي ضيف : « ينتهي القرن الرابع وندخل في القرن الخامس ويلقانا القاضي عبد الجبار المتوفى سنة ٤١٥هـ في الجزء السادس عشر من كتابه المغني حيث يناقش قضية إعجاز القرآن ونراه يرجع هذا الإعجاز إلى مواقع الكلام وطريقة أدائه رافضا أن يكون في الكلمات المفردة أو في المعاني أو في الصور البيانية ، وتظهر كتب جديدة مثل « سرّ الفصاحة » لابن سنان الخفاجي ، ولكنها لا تحل مشكلة الإعجاز ، بل تبقى معلقة تنتظر عقلا حصيفا يحل عقدها ويوضح دلائلها وأسرارها . وكان عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ للهجرة هو هذا العقل الحصيف الذي استطاع أن يفسرها تفسيراً دقيقاً في كتابه « دلائل الإعجاز » و« أسرار البلاغة » (٣٦) .

لقد سبق عبد القاهر الجرجاني علماء في البلاغة أسسوا هذا العلم واستفاد منه من جاء بعدهم . ولكن الجرجاني أول من أسس قواعد علم البلاغة . ويقول فيه محيي علوم اللغة والدين السيد يحيى بن حمزة الحسيني صاحب كتاب « الطراز في علوم حقائق الإعجاز » في فاتحة كتابه هذا - وهو من أحسن ما كتب في البلاغة بعد عبد القاهر - ما نصه :
 « وأول من أسس من هذا الفن قواعده وأوضح براهينه ، وأظهر فوائده ورتب أفانيه ، الشيخ العالم النحرير علم المحققين عبد القاهر الجرجاني ، وفتح أزاهره من أكمامها ، وفتح أزواره بعد استغلاقتها واستبهامها » (٣٧) .

وقد درس عبد القاهر في « أسرار البلاغة » المعاني ووجوهها ، وكيف تتفق وتختلف ، ومن أين تجتمع وتفرق وتتبع خاصها ومشاعها ، وفصل أجناسها وأنواعها (٣٨) . إن أسرار البلاغة لكتاب كامل في علم البلاغة والمعاني والبيان تناول الجرجاني فيها بحث السجع ، والتجنيس والأخذ والسرقه والاستمداد ، والاستعانة ، والحقيقة ، والمجاز ، والاستعارة ، والتشبيه ، والتمثيل والحذف والزيادة ، وبين الفرق بين التشبيه والتمثيل ، وبين الاستعارة والتمثيل ، وبين التشبيه والاستعارة .

لقد حصل الاستاذ السيد محمد رشيد رضا على نسخة من كتاب « أسرار البلاغة » من صديقه الحميم العالم الأديب عبد القاهر أفندي المغربي - وهي مما تركه له والده ، وحصل على نسخة أخرى من الكتاب من إحدى دور الكتب السلطانية في دار السلطنة السنية ، فندب بعض الطلاب الأذكياء لمقابلة هاتين النسختين . فخرج من مجموعهما نسخة صحيحة وشرع في طبعها ووضع في ذيل المطبوع شرحا لطيفا ضبط فيه الكلمات الغريبة وفسرها ، وأشار إلى الخلاف بين النسختين فيما يحتمل صحة الاثنتين فبادر الأستاذ المفتي محمد عبده إلى تدريس الكتاب في الأزهر الشريف فأقبل على حضور درسه مع أذكياء الطلاب من العلماء والمدرسين وأساتذة المدارس الأميرية . وقد ظهر للأستاذ محمد عبده في غضون التدريس والمطالعة أغلاط في الكتاب بعضها من الطبع وبعضها من تحريف النساخ في الأصل وأغلاط أخرى في الهوامش ، فأحصاها السيد محمد رشيد رضا كلها من نسخته ووضع لها جدولاً في آخر الكتاب إتماماً للفائدة . (٣٩) وقام بطبعه وتصحيحه والتعليق عليه الأستاذ السيد محمد رشيد رضا

وطبع سنة ١٣١٩هـ وصدر في محرم الحرام سنة ١٣٢٠هـ .
 ١٨- دلائل الإعجاز : ألف عبد القاهر الجرجاني كتابه «دلائل الإعجاز» في البلاغة والنقد وقد تناول فيه أيضا أهم المسائل النحوية . وعلى ذلك يعتبر هذا الكتاب هو الآخر في مصاف مؤلفاته النحوية . وقد ناقش المؤلف في «دلائل الإعجاز» خصائص التراكيب النحوية المختلفة ، كالإخبار بالاسم ، والإخبار بالفعل ، وتأکید الجملة الاسمية ، واستعمال «الذي» وحذف المبتدأ من الجملة الاسمية ، والفروق في الحال وغير ذلك . ولكنه وضع جميع الأصول البلاغية في هذا الكتاب . ومن ثم يعد الكتاب أصلا لنظرية عبد القاهر الجرجاني في البلاغة والبيان . يقول الأستاذ السيد محمد رشيد رضا عن الإمام عبد القاهر الجرجاني : « هو مؤسس علم البلاغة ومقيم ركنيها المعاني والبيان ، بكتابه «أسرار البلاغة» و«دلائل الإعجاز» ، وأن السكاكي ومن دونه من علماء هذا الشأن عيال عليه » (٤٠) .

ولا يخفى على العلماء الخبراء أن القرآن الكريم في أعلى درجات الفصاحة والبلاغة حتى أن العرب قد عجزوا عن أن يعارضوه مع أن العرب يوم نزل القرآن الحكيم كانوا معدن الفصاحة وأرباب البلاغة . وقد تحدى لهم القرآن الكريم في عدة مواضع قائلا : ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا ﴾ (٤١) ﴿ أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ (٤٣) ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان

بعضهم لبعض ظهيرا ﴿ (٤٤) .

فهنا يتحدى القرآن الكريم الجميع من الانس والجن فإن كانوا يرتابون في تنزيله ، فدونهم فليأتوا بسورة مثله ، وليدعوا من يشهد لهم بهذا - من دون الله - فالله قد يشهد لعبده ورسوله بالصدق في دعواه . وهذا التحدى ظل قائما في حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وبعدها وما يزال قائما إلى يومنا هذا . وهو حجة لا سبيل إلى المماحكة فيها ، وما يزال القرآن يتميز من كل كلام يقوله البشر تميزا واضحا قاطعا ، وسيظل كذلك أبدا ، تصديقا لقول الله عز وجل في الآية التالية ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا ﴾ . والتحدى هنا عجيب ، والجزم بعدم إمكانه أعجب ، ولو كان في الطاقة تكذيبه ما توانوا عنه لحظة . وما من شك أن تقرير القرآن الكريم أنهم لن يفعلوا - وتحقق هذا كما قرره هو بذاته - معجزة لا سبيل إلى الممارسة فيها (٤٥) .

وكان الإعجاز القرآني موضع اهتمام العلماء بعد عصر النبوة . فألف الجاحظ كتابا في نظم القرآن وسمّاه « الاحتجاج لنظم القرآن وغريب تأليفه وبديع تركيبه » وقد نقده الباقلائي وقال : إنه لم يأت فيه بجديد ، ولم يخرج فيه عما قاله المتكلمون قبله (٤٦) وذكره ياقوت باسم « نظم القرآن » . وفي هذا الكتاب يرى الجاحظ أن الإعجاز إنما هو في النظم . وتلاه أبو عبد الله محمد بن زيد الواسطي المعتزلي فألف كتابا سماه « إعجاز القرآن في نظمه » . وهذا الكتاب مفقود - ولابن الأخشيد كتاب في نظم القرآن . أما كتاب أبي عبيدة (ت ٢٠٨) « مجاز القرآن » فليس في الإعجاز وإنما هو في أسلوب القرآن وتعبير بأساليب العرب . وألف الرماني

(ت٣٨٤هـ) رسالته « النكت » في إعجاز القرآن ، والخطابي
 (ت٣٠٨هـ) « البيان في إعجاز القرآن » ، وأبوبكر الباقلاني
 (ت٤٠٣هـ) في كتابه « إعجاز القرآن » وقد تكلم فيه عن
 نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم وأن معجزتها القرآن ، وأثبت
 أن القرآن معجز .

ويتحدث الجرجاني في دلائل الإعجاز بكلام موجز عن
 إعجاز القرآن ويبين مرتبته وعظمته في البلاغة . وكان كثير من
 المعتزلة يرون أن الإعجاز سببه الصرفة . وينسب هذا
 المذهب إلى النظام المعتزلي (ت٢٢٨هـ) . وقد ردّ
 الجرجاني على رأي من يذهب إلى أن الإعجاز سببه الصرفة ،
 ورفض أن يكون الإعجاز في الكلم المفردة أو في معاني
 الكلم المفردة . ورد الإعجاز إلى النظم وحده ، ويقول :
 « أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظم القرآن » ولا يعرف الإعجاز
 إلا بمعرفة خصائص نظم الكلام . ولذلك وقف عبد القاهر
 كتابه « دلائل الإعجاز » على شرح نظرية النظم التي هي
 الأصل في الإعجاز ، ورسم منهجا علميا متكاملا لدراسة
 النظم ، وجعل هذا المنهج مفتاحا لفهم قضية البلاغة
 والإعجاز . ويفيض عبد القاهر في دلائل الإعجاز في شرح
 النظم وأسرار بلاغته ، وجعل معرفة أسرار البلاغة بمعرفة أسرار
 النظم ودقائقه ، وهو لا يريد بدلائل الإعجاز حجج الإعجاز ،
 لأنه لا يتكلم عنها ولم يعرض لها ، وإنما يريد بالدلائل
 معنى مقدمات ، فكأنه يقول هذه هي مقدمات لفهم الإعجاز
 وأسراره . ومن ثم جعل الكتاب خاصا بقضية النظم وبالتطبيق
 النقدي عليها ، لأن معرفة هذه القضية مقدمة لمعرفة أسرار
 الإعجاز نفسه . وإنما ألف عبد القاهر كتابه لعرض نظريته

الجديدة حول النظم . وقد أشار إليها في « أسرار البلاغة » ،
وقد عرض لها في « دلائل الإعجاز » عرضا واسعا .
وفي مقدمة « دلائل الإعجاز » يعرف عبد القاهر النظم
بأنه « تعليق الكلم بعضها ببعض » . ويجعل وجوه التعلق
ثلاثة :

- ١- تعلق اسم باسم بأن يكون خبرا عنه أو حالا منه أو تابعا له .
- ٢- تعلق اسم بفعل بأن يكون فاعلا له أو مفعولا به أو مطلقا
أو فيه أو له أو معه .
- ٣- تعلق حرف بهما وذلك على وجوه عدة .

ويفسر النظم فيقول : « وليس النظم في مجمل الأمر إلا
أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو ، وتعمل
على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه ، فلا تزيع عنها ، فمداره
على معاني النحو وعلى الوجوه والفروق التي من شأنها أن تكون
فيه . وليس هو إلا توخى النحو في معاني الكلم ، فلا معنى
للنظم غير توخى معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلام أو فيما
بين معاني الكلام بتعبير آخر » (٤٧) .

إن عبد القاهر الجرجاني من أعظم النقاد في تاريخ
الثقافة الأدبية العربية ، وقد سبقه نقاد كبار وضعوا أصول النقد
الأدبي على مناهج مفصلة ، مثل الآمدي (ت ٣٧١هـ)
والقاضي الجرجاني (٣٩٢هـ) ويتناول عبد القاهر الجرجاني في
« دلائل الإعجاز » كثيرا من المشكلات الأدبية والبيانية
والنقدية ويبدى رأيه فيها ، فقد أبان في كتابه مدى قيمة عنصر
المعنى في النص الأدبي ، ومع ذلك فقد أنكر إنكارا شديدا
على من يقدمون الشعر لمعناه ، ويقللون من الاحتفال
باللفظ . ويرى الجرجاني أن اللفظ رمز لمعناه ، وهو يتلاقى

في ذلك مع كل النقاد العالميين القدامى والمحدثين .
والعلاقات الأسلوبية بين الألفاظ هي في رأيه موطن البلاغة .
ويقرر أن الألفاظ خدم للمعاني أي أن المعاني هي الأصل .
وقد أبان أهمية اللفظ في الأداء والتعبير البياني ولكنه نفى أن
تكون الفصاحة صفة للفظ من حيث هو لفظ .

ولقد قال كثير من الباحثين بأن « دلائل الإعجاز »
خاص ببحوث علم المعاني ، ولكن هذا خطأ كبير ، إن
المؤلف لم يخص كتابه « دلائل الإعجاز » ببحوث علم
المعاني وحده ، بل تكلم فيه عن التشبيه ، والاستعارة ،
والمجاز ، والكناية ، مما هو من مباحث علم البيان . وتكلم
فيه كذلك عن التقسيم ، والمزاوجة ، والسجع وغيرها مما هو
من مباحث علم البديع ، فكيف يكون الكتاب خاصا بعلم
المعاني .

وقد قال طاش كبرى زاده عن كتابه « ولو لم يكن له
سوى كتاب « أسرار البلاغة » و« دلائل الإعجاز » لكفاه شرفا
وفخرا » . (٤٨) .

وقد صحح مسودة كتاب (دلائل الإعجاز) وعلق عليه
المفتي محمد عبده ، والسيد محمد رشيد رضا ، والشيخ
محمود الشنقيطي ، والشيخ أحمد المراغي ، وروجع على
نسخة مصورة بمعهد المخطوطات العربية ، عن نسخة الخزانة
الملكية بالرباط ، وصدر من مكتبة القاهرة مع تعليق وشرح
الدكتور عبد المنعم خفاجي سنة ١٩٧٦م / ١٣٩٦هـ .
نموذج من أشعاره :

مدح عبد القاهر الجرجاني نظام الملك الطوسي وغيره
ولكنه لم ينل شيئا من الممدوحين البخلاء .

فقال في الشكوى:

لا تأمن النفثة (٤٩) من شاعر
ما دام حيا سالما ناطقا
فإن من يمدحكم كاذبا
يحسن أن يهجوكم صادقا (٥٠)

قد سجل عبد القاهر الجرجاني في بعض شعره موقفه
من الزمان ونفاق أهله وتكالبهم على الدنيا بكل الوسائل ،
وتفريطهم في العلم والتنكر له ولأهله وبالغ في التشاؤم ولم
يصب التعبير الموفق لما قال :

كبر (٥١) على العلم ولا ترمه
ومل إلى الجهل ميل هائم (٥٢)
وعش حمارا تعش سعيدا
فالسعد في طالع البهائم (٥٣)

ويقول أيضا :

هذا زمان ليس فيه سوى النذالة والجهالة
لم يرق فيه صادع وسلمه النذالة (٥٤)

وكانت وفاة الجرجاني في بلده جرجان سنة ٤٧١ هـ /
١٠٧٨ م على أرجح الأقوال (٥٥) .

وقد أصاب الدكتور علي توفيق الحمد في قوله عن
مكانة الجرجاني العلمية : « ولعل ما يوضح منزلته العلمية
وأصالته ما كتب عنه وعن كتبه في الماضي والحاضر ، فهو
رجل شغل الناس بعلمه ، فهو أمة برأسه ونسيج وحده »
(٥٦) .

المراجع والهوامش

- ١- الدكتور عمر فروخ ، تاريخ الأدب العربي ج ٣ ، بيروت ، ١٩٨٤م ، ص١٨٣ ، ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، بيروت ٣/٢٤٠ ، عمر رضا كحالة ، معجم المؤلفين ، دار إحياء التراث العربي ، ج ٥ ، بيروت ، ص ٣١ ، السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ، ٢٤٢/٣ بيروت ، سنة الطبع غير مذكور .
- ٢- الجرجاني ، الإمام عبد القاهر ، أسرار البلاغة ، تعليق وتصحيح : السيد محمد رشيد رضا ، مطبعة الترقى ، مصر ، ١٣١٩ هـ / ١٣٢٠ هـ ، مقدمة : ص - ح .
- ٣- الدكتور عمر فروخ ، المصدر السابق ، الأنباري ، أبو البركات ، نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، مطبعة المدني ، ص ٣٦٣ وما بعدها .
- ٤- الجرجاني ، الإمام عبد القاهر ، كتاب المفتاح في الصرف ، تحقيق الدكتور علي توفيق الحمد ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٨م ، ص ٧ ، السبكي ، المصدر السابق ، ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، القاهرة ، ١٣٥٥ هـ ، ١٤/٢٤ .
- ٥- الفيروز آبادي ، البلغة في تاريخ أئمة اللغة ، تحقيق محمد المصري ، دمشق ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٢م ، ص ١٢٦ .
- ٦- الأنباري ، أبو البركات ، المرجع السابق .
- ٧- دمية القصر ، ص ١٥٨ ، عن عبد القاهر الجرجاني - بلاغته ونقده ، الدكتور أحمد مطلوب ، الكويت ، ط ١ ، ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣م - راجع هامش كتاب المفتاح في الصرف ، ص ٧ .
- ٨- الفيروز آبادي ، المصدر السابق ، ص ١٢٦ .
- ٩- السيوطي ، بغية الوعاة ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، ط ١ ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٣٨٤ هـ / ١٩٧٢م ، ١٠٦/٢ .

- ١٠- الدكتور أحمد مطلوب ، المصدر السابق ، ص ١٩ .
- ١١- الدكتور عمر فروخ ، المصدر السابق ، ص ١٨٣ .
- ١٢- الجرجاني ، الإمام عبد القاهر ، كتاب المفتاح في الصرف ، ص ٨ .
- ١٣- القفطي ، جمال الدين ، إنباه الرواة على أنباء النحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ج ٢ ، دار الكتب المصرية ، ط ١ ، ١٣٧١ هـ / ١٩٥٢ م ، ص ١٨٩ وما بعدها .
- ١٤- الدكتور عمر فروخ ، المصدر السابق ، ص ١٨٤ .
- ١٥- الجرجاني ، الإمام عبد القاهر ، أسرار البلاغة ، مقدمة : ص « د » .
- ١٦- نفس المصدر ، مقدمة : ص : هـ .
- ١٧- الزركلي ، الأعلام ، ٤٨/٤ ، الحافظ عبد الرحيم ، الإمام عبد القاهر الجرجاني ومنهجه النحوي ، مجلة ، (الدراسات الإسلامية) مجمع البحوث الإسلامية . إسلام آباد باكستان ، الشتاء ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م ، ص ٩٧ .
- ١٨- الجرجاني ، الإمام عبد القاهر ، كتاب المفتاح في الصرف ص ٨ .
- ١٩- راجع : الدكتور أحمد مطلوب ، عبد القاهر الجرجاني ، بلاغته ونقده ، الكويت ، ط ١ ، ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م .
- ٢٠- له كتاب في العروض - وهو قصيدة تتضمن قواعد الأوزان الشعرية ، وطبعت في ذيل كتاب « الإقناع في العروض وتخريج القوافي » للمصاحب بن عباد ، ١٩٦٠ م ، بتحقيق الشيخ آل ياسين .
- ٢١- طاش كبرى زاده ، مفتاح السعادة ومصباح السيادة ، تحقيق كامل بكري وعبد الوهاب أبو النور ، القاهرة ، ٢١٨/١ ، ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، القاهرة ١٣٥٥ هـ ، ٢١٧/١ ، الدكتور بدر اوي زهران ، معالم اللغة - عبد القاهر الجرجاني - السفنن في العربية ونحوها ، ط ٢ ، القاهرة ، ص ٢١-٢٢ ، القفطي ، جمال الدين ، المصدر السابق ، ص ١٨٩-١٩٠ .

- ٢٢- يقول الدكتور علي توفيق الحمد : « إن هذا الكتاب لم يعثر عليه بعد » .
- ٢٣- حاجي خليفه ، كشف الظنون ، ط ٣ ، طهران ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م ، ٢١١/١ .
- ٢٤- الزركلي ، الأعلام ، القاهرة ، ١٩٥٤م ، ١٧٤/٤ .
- ٢٥- الجرجاني ، الإمام عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، تعليق وشرح : الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ، مكتبة القاهرة ، ١٩٧٦م ، / ١٣٩٦هـ - ص ١٠ ، هامش رقم ٢ .
- ٢٦- مجلة « الدراسات الإسلامية » ، الشتاء ، ١٩٩٠م ، ص ١٠٢ .
- ٢٧- الدكتور أحمد مطلوب ، المصدر السابق ، ص ٤٥ ، كتاب المفتاح في الصرف ، ص ٩ .
- ٢٨- الجرجاني ، الإمام عبد القاهر ، كتاب المفتاح في الصرف ، ص ٢٦ .
- ٢٩- نفس المصدر ، ص ١١ .
- ٣٠- نفس المصدر ، ص ١١-١٢ .
- ٣١- نفس المصدر ، ص ١٢ .
- ٣٢- وقد ذكر الفارابي هذين المصطلحين « ذا الثلاثة وذا الأربعة » في مقدمة ديوان الأدب ١٣٥ ، تحقيق د . أحمد مختار عمر - (انظر : هامش ٥٠ من بحث جهود عبد القاهر في الدراسات التصريفية ، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني ، عدد ٢٨) .
- ٣٣- معاني القرآن للفراء : ٢١/١ ، ٩٤/٢ وما بعدها ، الممتع ٥١٣/٢ ، الإنصاف (م ١١٨) كما ذكر في هامش كتاب المفتاح في الصرف ، ص ١٤ .
- ٣٤- الدكتور شوقي ضيف ، النقد ، ط ٤ ، دار المعارف ، لم تذكر سنة الطبع ، ص ١٢٩ .
- ٣٥- نفس المصدر ، ص ١٠٠-١٠٢ .
- ٣٦- نفس المصدر ، ص ١٠٢ .

- ٣٧- الجرجاني ، أسرار البلاغة ، المقدمة ، ص : «و» .
- ٣٨- نفس المصدر ، ص ١٨ .
- ٣٩- نفس المصدر ، المقدمة ، هـ - ز .
- ٤٠- الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ص ٣٧ .
- ٤١- سورة البقرة ، آية ٢٣-٢٤ .
- ٤٢- أيضا هود ، آية ١٣-١٤ .
- ٤٣- أيضا ، يونس ، آية ٣٧-٣٨ .
- ٤٤- أيضا ، الإسراء ، آية ٨٨ .
- ٤٥- سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ج ١ ، ط ٣ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان سنة الطبع غير مذكورة ، ص ٥٣-٥٤ .
- ٤٦- الجرجاني ، الإمام عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، ص ٣٣ (راجع إعجاز القرآن للباقلاني ، ص ٤٠٣) .
- ٤٧- نفس المصدر ، ص ١٩-٢٦ ، ٣٣-٣٦ .
- ٤٨- طاش كبرى زاده ، المصدر السابق ، ١٧٠/١ ، كتاب المفتاح في الصرف ، ص ٩ .
- ٤٩- النفثة : النفخة اليسيرة يخال أن يخفف بها الإنسان بعض ما يشكو منه من الضيق .
- ٥٠- الدكتور عمر فروخ ، المصدر السابق ، ص ١٨٧ .
- ٥١- كبر على العلم أربع تكبيرات ، صلّ عليه صلاة الجنازة ، يقصد أن العلم قد مات ، ولم يبق منه فائدة .
- ٥٢- المحب الموله بالحب .
- ٥٣- في طنائع البهائم : تعبير معناه أن المولود يكون سعيدا أو شقيقا في حياته بحسب النجم الذي يكون طالعا في يوم مولده ، فجميع البهائم (الناس الجهلة) قد ولدوا في أيام كانت فيها كواكب السعود طالعة ، وجميع البشر (الناس العاقلون المتعلمون) قد ولدوا في الأيام التي كانت فيها

- الكوكب النحس مشرقة . (وفي بروج السماء التي تنزل فيها الكواكب
 أسماء حيوانات : برج الأسد ، برج الجمل ، برج العقرب) . (من هامش
 تاريخ الأدب العربي ، ج ٣ ، للدكتور عمر فروخ ، ص ١٨٧) .
- ٥٤- الجرجاني ، الإمام عبد القاهر ، كتاب المفتاح في الصرف ، ص ٨ ،
 دمية القصر ، ١٥٧ ، نقلا عن « عبد القاهر الجرجاني : بلاغته ونقده » ،
 ص ٢٢ .
- ٥٥- بغية الوعاة : ١٠٦/٢ ، إنباه الرواة : ١٩٠/٢ ، طبقات الشافعية للسبكي
 ٢٤٢/٣ ، شذرات الذهب : ٢٤٠/٣ .
- ٥٦- الجرجاني ، الإمام عبد القاهر ، كتاب المفتاح في الصرف ، ص ٩ .

